**Kalemname**
e-ISSN: 2651-3595
Aralık / December 2018, 3 (6): 136-165

# استراتيجية العثمانيين في تأسيس السلم الاجتماعي ( مقارنة بالقرآن الكريم)

*Sosyal Barışın Kurulmasında Osmanlı'nın Stratejisi*

**Mesut Cevher**
Dr. Öğr. Üyesi. Kırıkkale Üniversitesi, İslami İlimler Fakültesi, Arap Dili Belağatı Anabilim Dalı
Asistant Professor Dr. Kırıkkale University, Faculty of Islamic Science, Department of Arabic Language and Literature
Kırıkkale, Turkey
mgouhar@yahoo.com
orcid.org/ 0000-0002-6050-0029

**Makale Bilgisi / Article Information**
**Makale Türü / Article Types:** Araştırma Makalesi / Research Article
**Geliş Tarihi / Received:** 14 Kasım / November 2018
**Kabul Tarihi / Accepted:** 19 Aralık / December 2018
**Yayın Tarihi / Published:** 26 Aralık / December 2018
**Yayın Sezonu / Pub Date Season:** Aralık / December
**Cilt / Volume:** 3 Sayı / Issue: 6 Sayfa / Pages: 136-165
**Atıf / Cite as:** Cevher, Mesut. "استراتيجية العثمانيين في تأسيس السلم الاجتماعي ( مقارنة بالقرآن الكريم) [*Sosyal Barışın Kurulmasında Osmanlı'nın Stratejisi*]", *Kalemname* 3/6 (December 2018): 136-165
**İntihal / Plagiarism:** Bu makale, en az iki hakem tarafından incelendi ve intihal içermediği teyit edildi. / This article has been reviewed by at least two referees and scanned via a plagiarism software.

www.dergipark.gov.tr/kalemname

## ملخص

لقد كان أثر التربية القرآنية واضحا في سلوك حكام الدولة العثمانية ؛ لذلك عملوا على إرساء السلم في مجتعهم ، وقد اعتمدوا في ذلك استراتيجية تتوافق مع المنهج القرآني القائم على التجميع لا التفريق ، فلم يكن لدى العثمانيين التعصب لقومية أو عرق ، بل لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنهم كانوا لا يتعصبون حتى لدينهم ، لذلك عاش في دولتهم جميع الملل والنحل ، ولجأ إليهم المضطهدون في العالم ، ومنهم اليهود الذين فروا من هتلر ليحميهم العثمانيون ، ويقدموا لهم العون والعيش الكريم في دولتهم ،وسوف تتم دراسة هذا الموضوع في فصلين:

**1. استراتجية الدولة العثمانية لتأسيس السلم الاجتماعي.**

**2. استراتيجيات السلم في القرآن .**

## Ottoman strategy in establishing social peace (Compared to the Holy Quran)
## Abstract

The influence of Quranic education was evident in the behavior of the rulers of the Ottoman Empire. So they worked to establish peace in their community. They adopted a strategy consistent with the Qur'anic approach based on aggregation rather than differentiation. The Ottomans did not have nationalism or ethnicity. But we do not exaggerate if we say that they were not fanatic even to their religion. Therefore, all the boredom and the bees lived in their state. Including the Jews who fled Hitler to be protected by the Ottomans. And

provide them with help and a decent life in their state. This topic will be studied in two chapters:

1. The strategy of the Ottoman Empire to establish social peace.
2. Strategies for peace in the Qur'an.

**مقدمة** :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسل الله وبعد ،

فإن الدولة العثمانية هي أطول الدول عمرا في التاريخ الإنساني ، ومن المعلوم أن الدول لايطول عمرها إلا بحضارة وعدل ، وهذا هو سر بقاء الدولة العثمانية هذه المدة الطويلة ؛ فهم ذروة الحضارة الإسلامية [1] ، ورغم هذه الحقيقة فإن الصراع بين أوربا الصليبية وذلك المارد الإسلامي الكبير الذي قض مضاجع الصليبين ونغص حياتهم ، هذا المارد الذي قزم أحلام الصليبين وهدم عروشهم إن هذا الصراع هو ما دفع الأوربيين دفعا لدارسة الحالة العثمانية ، وتلك دراسة يحدوها الهلع ويغذيها الحقد الدفين ، خصوصا إذا كان من قاموا بها هم المستشرقون بما هو معروف عنهم بالحقد على الإسلام ومن يحمل لواءه كائنا من كان ، ومن الثابت أن هذه الدراسات كانت في غالبتها مقدمات للغزو الصليبي للبلدان المسلمة ، فقد كانت تمثل الدراسات اللغوية – مثلا- التي قام بها المستشرقون في شرق أفريقيا بمثابة عمل استطلاعي للقوات العسكرية ، تكشف لها الخريطة الفكرية والثقافية لتتمكن من اختراق هذه المجتمعات بكل وسائل الغزو والاختراق ، ومهما حاولت هذه الحركات الاستشراقية من ادعاء الحيادية في الطرح ، والموضوعية في البحث فإنها في أحسن أحوالها كانت تدس السم في العسل ، بهذا المنطق الحاقد تناولت أقلام الأوربيين الدولة العثمانية ، وعندما انهزم المسلمون ثقافيا وتبعوا أوربا وتلقت البعثات المسلمة العلوم والمعارف على يد

[1] محمد حرب العثمانيون في التاريخ والحضارة القاهرة 1994 :4.

الأوربيين ، كان مما تلقوه تاريخ الدولة العثمانية ، فتلقوا كراهية العثمانيين ، وعادوا إلى بلادهم ليكرروا ما تلقوه عن أوربا[2] .

ولعل الباحث ليجد سببا منطقيا يمكن أن يرد إليه حقد الأوربيين على العثمانيين ، فهم أصحاب دولة مسلمة ، ويمثلون الخلافة الإسلامية [3]، ولذلك فقد كانوا يهددون الوجود الأوربي المسيحي تهديدا حقيقيا ، وهم منعوا ولو مؤقتا محاولات أوربا المسيحية القيام بحملات التطهير العرقي في البلاد الإسلامية ، كما فعلوا في الأندلس ، وحجموا من سيطرة أسبانيا على دول المغرب العربي ، وقد سلكوا في ذلك مسلكين : الأول دعم المقاومة المحلية للاحتلال الإسباني ، والثاني إرسال قوات عسكرية عثمانية للدفاع عن هذه الدول [4]، ولعل الباحث قد يجد عذرا لبعض الكتاب المسلمين- اسما - من غير الأتراك في الهجوم على الدولة العثمانية ؛ فهم مخدوعون بالنعرات القومية ، مغرروون بما تعلموه في أوربا أن العثمانيين كانوا حريصين على عدم تقدم بلادهم ، وأنهم يريدونها ضعيفة متأخرة عن ركب الحضارة تابعة للباب العالي ، وغير ذلك من الأكاذيب التي تبين كذبها بعد فوات الأوان ، لكنه يصعب أن يجد سببا منطقيا لمعاداة أحفاد العثمانيين أجدادهم ، والقطيعة مع تاريخهم تحت دعاوى سياية أو فكرية ، في حين أن أوربا والغرب لايفرقون في تعاملهم مع التركي من أي مشرب كان ، بل يعاملونه على أنه وريث العثمانيين ، وأنه يجب أن يدفع ضريبة هذا النسب مهما أقسم على الولاء لأوربا ومهما غلا في معاداة أجداده وتاريخه ، ومهما تنصل من إسلامه ، وأقر بأنه ملحد أو يساري أو غير ذلك مما يظن هو أنه يتخلص من نسبه لمجرد اعتناقه فكرا محبوبا لدى الأوربيين .

لقد كان العداء الأوربي للعثمانيين واضحا ، فقد حاولت البندقية اغتيال السلطان محمد الفاتح فقط خمس عشرة مرة ، وكانت ترصد ، لذلك مكافآت مالية ضخمة ، وتستخدم لهذا الغرض الطابور الخامس ، من الذين ادعوا الإسلام ، وتسموا بأسماء عثمانية ، مثل

---

[2] السابق :4.

[3] أحمد زكريا الشلق ، العرب والدولة العثمانية من الخضوع إلى المواجهة ط. مصر العربية للنشر والتوزيع القاهرة 2002 :17.

[4] السابق : 38-41.

يعقوب باشا (maestro Iacopo ) الذي كان طبيب الفاتح الخاص ، والذي نجح في اغتياله بالسم التدريجي ، وعندها وصلت رسالة بريدية إلى سفارة البندقية في إسطنبول تزف الخبر السعيد بعبارة تعبر عن فحوى هذا الحقد الدفين حيث تقول : مات النسر الكبير [5].

إن الناظر إلى ظروف نشأة الدولة العثمانية يستطيع أن يتوقع ما يمكن أن تكون عليه هذه الدولة ؛ فقد كان آل عثمان عشيرة صغيرة من العشائر التركية التي استوطنت آسيا ، وعندما اجتاح المغول العالم اضطرت هذه العشائر إلى الهجرة تجاه الأناضول ، بيد أن كل العشائر لم تصل إلى الأناضول ، فمنها من استوطن شمال العراق ، ومنها من سكن إيران وأفغانستان ، ولكن بني عثمان أكملوا سيرهم إلى الأناضول بحثا عن وطن يعيشون فيه ، كانت هذه العائلة مسلمة تعيش للإسلام وتعيش به ، تتخلق بأخلاقه وتتلتزم بآدابه وأحكامه في الحرب كما تلتزم بها في السلم ، وكانت تتمتع بأخلاق الفرسان لاتتخلى عنها .

ولعل هذه الصفات هي التي ساعدت بني عثمان على إنشاء الدولة العثمانية ، فقد كانت عشيرتهم ( قايي ) بقيادة كوندوز آلب قد وصلت بعد عشر سنوات من الرحيل إلى شرق الأناضول ، وبعد وفاته تولى ابنه أرطغرل والد الأمير عثمان زعامة العشيرة خلفا له ، ثم تولى بعده عثمان الذي تنسب إليه الدولة العثمانية ، وفي تلك الأثناء قامت في منطقة أرزنجان التي تقع في الشمال الشرقي لتركيا الآن معركة سميت باسم "ياسي جمن " بين سلطان قونية السلجوقي وجلال الدين خوارزمشاه خاقان تركستان ، ولقد أوشكت الهزيمة أن تلحق سلطان قونية السلجوقي لولا تدخل عشير قايي التي لم تكن تعرف عن المعركة شيئا ولكن دفعتها نخوتها في مساعدة الجانب الضعيف أن تقف بجوار السلاجقة لينتصروا في المعركة ، وقد ارتاح سلطان قونية لذلك ولما علم أن عشيرة قايي تبحث عن وطن منحهم ثغرا على الحدود في المنقطة التي تلتقي فيها أسكيشهر وبلاجيك وكوتاهيا في خريطة الجمهورية

---

[5] خليل إنالجيك تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة محمد .م. الأرناؤوط . دار المدار الإسلامي ليبيا 2002 1/ 177.

التركية اليوم [6] ، وقد كان هذا الثغر لا يتجاوز 2000 كم ولكن شخصية أرطغرل وفروسية عشيرته وحبهم للجهاد ضد البيزنطيين الذين كانوا يطمعون في دولة السلاجقة جعله يوسع هذا الثغر ليصل إلى 4800 كم وهي المساحة التي ورثها عنه عثمان [7] ، ثم توسع عثمان باقتطاع أراضي الدولة البيزنطية حتى سلم ابنه أورخان نواة الدولة العثمانية التي تصل مساحتها 16000 كم[8] .

**1. استراتجية الدولة العثمانية لتأسيس السلم الاجتماعي:**

مات المؤسس عثمان وهو يحاصر مدينة إزمير ، وقد أوصى ابنه أورخان وصية تعتبر نبراسا في الحكم التزم بها أورخان وكل من جاء بعده من خلفاء آل عثمان ، وبسبب القيمة التي تمثلها هذه الوصية والتي رسمت استراتيجية الدولة العثمانية لتكون مجتمعا مثاليا للسلام ، وصانعة للحضارة ، بسبب ذلك كله نجد أن لا مناص من عرض هذه الوصية كما أوردها المؤرخ العثماني عاشق شلبي مترجمة إلى العربية ، يقول عثمان : (يا بني: إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين، وإذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلاً.. يا بني: أحط من أطاعك بالإعزاز، وأنعم على الجنود، ولا يغرك الشيطان بجندك وبمالك، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة.. يا بني: إنك تعلم أن غايتنا هي إرضاء الله رب العالمين، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق، فتحدث مرضاة الله جل جلاله.. يا بنى: لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة الحكم أو سيطرة أفراد، فنحن بالإسلام نحيا ونموت، وهذا يا ولدي ما أنت له أهل)[9].

ومن خلال هذه الوصية يتضح لنا استراتجية الدولة العثمانية لتأسيس السلم الاجتماعي ، ولعل أهم عامل من عوامل نجاحهم في ذلك هو أنهم لم يتميزوا عن غيرهم بجنسهم ، ولم يتعصبوا لقومية ، بل كان مصدر فخرهم وأساس التمايز عندهم أنهم مسلمون

[6] محمد حرب العثمانيون في التاريخ والحضارة :10
[7] محمد حرب السابق :10
[8] محمد حرب السابق :11 ، لامين بن إبراهيم شميل الوافي في المسألة الشرقية والحرب الأخيرة بين الروس والعثمانيين مطبعة الأهرام الأسكندرية مصر.1877: 1/5-8 .
[9] محمد حرب السابق :13

بالدرجة الأولى [10]، ومن هنا كانت استراتيجيهم نابعة من الدين الإسلامي الحنيف ، تستمد ركائزها من أحكامه ، و تستنير في دربها بمشورة علمائه ،تلتزم التواضع في ذروة النصر ،وقد ميزت هذه الاستراتيجية مجموعة من الأسس التي هيأت لها النجاح ومن أهم هذه الأسس :

أ. **التجرد لله عز و جل** : و هذه الركيزة التي اعتمدها المؤسس عثمان و التي صار عليها أبناؤه من بعده جعلت الغاية من الجهاد و خوض المعارك إرضاء الله و نشر الحق و العدل ،ونفت هذه الركيزة الطمع في العرش و الملك والسلطان من أذهان القادة ، مما جعل الشعوب المحيطة بالدولة العثمانية الفتية تنجذب إليها وتطمئن بوجودها وتدعمها في ترسيخ حكمها ، وتناصرها في جهاد عدوها ، فبدلا من أن تستهلك الدولة وقتها و جهدها و مالها لحفظ الأمن الداخلي اندفعت بقوة الدفع الناجمة عن الوحدة الداخلية و تأليف الصفوف إلى الجهاد في الجبهات الخارجية معتمدة على الأمن و السلام في الجبهة الداخلية ، إننا نجد مؤسس الدولة العثمانية وكأنه يستحضر قول الله تعالى : (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163) ) [11] وهو ماتؤكده عبارته في الوصية " فنحن بالإسلام نحيا ونموت "

ب. **العدل** : وقد كان من أهم الصفات التي يحرص عليها كل خلفاء بني عثمان و قادتهم ، يمتثلون في ذلك أمر الله عز وجل ، و يطلبون مرضاته بإقامة العدل بين الخلق ، و هم لا يفرقون في ذلك بين قريب و غريب ، شريف و وضيع ، مسلم و غير مسلم [12]، و لا ينظرون إلى عرق ولا لون لتمييزه عن الآخر ، و هم في هذا العدل لا يفرقون في من يحبون و يكرهون بل يعدلون لله وبأمر الله ، و لعل هذا العدل هو ما عرفه عنهم غير المسلمين فاعترفوا بعدلهم ، و فتنوا بسماحتهم فأقروا بذلك رغم خلافهم العقائدي ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنهم طبقوا المقولة : العدل

[10] أحمد زكريا الشلق ، العرب والدولة العثمانية من الخضوع إلى المواجهة :20

[11] سورة الأنعام :162،163

[12] حسن الضيقة الدولة العثمانية الدولة والمجتمع والسلطة دار المنتخب العربي لبنان 1997 : 15،16.

أساس الملك ؛ فتحقق بهذا العدل الرضا و أمن المظلوم من ظلم الظالم ، و لقد وصل اهتمام العثمانيين بتحقيق العدل أن جعلوا من حق العبيد أن يشتكوا سادتهم عند القاضي إذا كلفوهم مالا يطيقون أو ضربوهم أو أهانوهم ، بل أوجبوا على أنفسهم أن يطعم السادة العبيد مما يأكلون و يلبسوهم مما يلبسون ، وباختصار فإن العبد المملوك في العهد العثماني أفضل حالا من الأجير في أوربا في ذاك الوقت [13] .

ت. **الطاعة**: لقد أطاع حكام بني عثمان الله ؛ فيسر لهم الحكم ومكنهم ، وكان المجتمع العثماني شديد السمع والطاعة لحكامه ماداموا ملتزمين بالشريعة ؛ لأنهم كانوا على علم بأن طاعة الحكام مقيدة دائماً بطاعة الله ورسوله ، كما قال - صلى الله عليه وسلم -: "لا طاعة في المعصية ، إنما الطاعة في المعروف"[14] ، وقد كانوا يطبقون أمر القرآن الكريم في ذلك حيث يقول تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا )[15]، وهم يعلمون أن طاعة ولي الأمر – ما أطاع الله – هو طاعة لله عز وجل ، ومعصيته معصية لله وللرسول تستوجب العقوبة في الدنيا والعذاب في الآخرة ،وهذا واضح جلي في قوله تعالى : (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)[16].وقوله : ( إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ) [17] أدت هذه الرؤية الواضحة في أذهان الحكام والمحكومين من العثمانيين إلى أن تكون الطاعة نابعة عن قناعة ، وليست تحت ضغط السيف ، ولا يخفى دور مثل هذه الطاعة في توفير السلم والأمن الاجتماعي ، وهو ما تعجز عنه اليوم أغنى دول العالم

---

[13] تاريخ الدولة العثمانية 579/2.

[14] أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم دار الجيل بيروت مع دار الأفاق الجديدة . بيروت ، كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين (1480/3) رقم 1852.

[15] سورة النساء : 59.

[16] سورة آل عمران :32.

[17] سورة محمد :33،32.

ثروة ، وأعتاها قوة ، وأكثرها جندا وعتادا ، وأسبقها إلى التقدم والتقنية ، ولا نجد تفسيرا لذلك سو ى أنه من فضل الله وتمكينه لعباده الصالحين ، وتحقيق لوعد الله لهم ؛ فقد قال تعالى : ( وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُون )[18].

ث. **النصرة** :كان المجتمع العثماني دائماً يلتف حول حكامه الشرعيين ويلبي دعوة الجهاد ويبذل الغالي والرخيص ويرى ذلك عبادة لله تعالى[19] ؛ فهم يمتثلون لأمره تعالى في قوله : (.....وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ).[20]وكان من مفاهيم المجتمع العثماني السائدة عندهم من نصرة الحاكم ألا يهان ، ومن معاضدته أن يحترم ، وأن يكرّم ، فقوامته على الأمة وقيادته لها لإعلاء كلمة الله، تستوجب تبجيله وإجلاله وإكرامه تبجيلاً وإجلالاً وإكراماً لشرع الله سبحانه الذي ينافح ويدافع عنه. يقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "إن من إجلال الله تعالى: إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط"[21].

ج. **النصح**:إن المجتمع العثماني كان يناصح ولاة أمره ويرى ذلك من صميم الدين ؛ لقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "الدين النصحية -ثلاثاً- قال الصحابة لمن يارسول الله؟ قال : لله -عز وجل- ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم"[22].

---

[18] سورة النور : 55 .

[19] علي محمد محمد الصلابي الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط دار التوزيع والنشر الإسلامية مصر 2001 :2/ 64.

[20] سورة المائدة: 2

[21] أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني ، سنن أبي داود ، دار الكتاب العربي - بيروت كتاب الادب، باب تنزيل الناس منازلهم رقم الحديث 4822.

[22] مسلم، كتاب الإيمان ، باب بيان أن الدين النصيحة، (74/1) رقم 55.

ح. **التقويم**: لقد استقر في مفهموم المجتمع العثماني أن بقاء الأمة على الاستقامة رهن استقامة ولاتها، ولذلك نجد في التاريخ العثماني صورا مشرفة في تقويم الحكام وإرشادهم ونصحهم ، فهذا المولى علاء الدين علي بن أحمد الجمالي المتوفى سنة 932هـ ، وقد كان عالماً عاملاً يمضي وقته في التلاوة والعبادة والدرس والفتوى، محافظاً على الصلوات الخمس مع الجماعة ، وكان كريم النفس ، طيب الأخلاق، عظيم المهابة ، صدّاعاً بالحق، عفيف اللسان لايذكر أحدا بسوء ، ولعلاء الدين احتساب عظيم مع السلطان سليم خان المتوفى عام 926هـ ومن ذلك: أن السلطان سليم أمر بقتل مائة وخمسين من موظفيه ، فلما سمع المولى علاء الدين بالأمر ذهب الى الديوان ، ولم تكن عادته الحضور الى السلطان إلا لأمر عظيم ، فلم يشعر الوزراء وأهل الديوان إلا بدخول الشيخ المفتي عليهم ، فوثبوا يستقبلونه حتى أقعدوه في صدر المجلس وقالوا له : أي شيء دعا المولى إلى المجيء إلى الديوان العالي؟ قال: أريد أن أدخل على السلطان ولي معه كلام ، فأستأذنوا له على السلطان ، فأذن له وحده فدخل عليه وجلس، وقال : وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان ، وقد سمعت بأنك أمرت بقتل مائة وخمسين رجلاً من أرباب الديوان لايجوز قتلهم شرعاً ، فغضب السلطان وكان صاحب حدة ، وقال له: لا تتعرض لأمر السلطنة وليس ذلك من وظفيتك، فقال الشيخ: بل أعترض لأمر آخرتك ، وإنه من وظيفتي ، ومهما عشت فإنك ميت ومعروض على الله ، وواقف بين يديه للحساب ، فإن عفوت فلك النجاة ، وإلا فإن أمامك جهنم وعليك عقاب عظيم ، ولا يعصمك ملكك ولا ينجيك سلطانك ، فما كان من السلطان إلا الإذعان والتسليم أمام نداء الحق من هذا المحتسب ، وخضع للحق ، وعفا عنهم جميعاً ، ثم إن المحتسب لم يكتف بذلك بل طالبه أن يعيد الجميع إلى وظائفهم ففعل . رحم الله المولى علاء الدين الذي كان عظيماً باحتسابه جريئاً في الحق لايخشى فيه لومة لائم ، ولقد تأثر السلطان سليم بهذا العالم وأمر بتكليفه بالقضاء العسكري لثقته فيه ، لكنه اعتذر بأنه قد عاهد الله أن لا يلفظ كلمة : حكمت ؛ فازداد إعجابه به [23].

خ. **الحرص على العمل التطوعي** : من أهم ما يميز الحقبة التي حكم فيها العثمانيون كثرة الأوقاف الخيرية ، والتنوع الكبير في هذه الأوقاف ، وقد كان البذل في هذا المجال يشترك فيه الرجال والنساء ، وكان الدافع وراء ذلك الأجر والثواب ، وإذا نظرنا في هذه الأوقاف المتعددة بين التعليم ، والعلاج ، ورعاية الأيتام ، وتمهيد الطرق ،وإطعام الطعام للفقراء ، وحتى إطعام الحيوانات الضالة ، نجد كل

[23] الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط :1/ 65

هذه الأوقاف تؤدي رسالة مهمة في تأمين المجتمع من كل ما يهدد أمنه وسلامته ، وقد انبهر غير المسلمين بهذه الأعمال الخيرية وأقروا في كتاباتهم بأنها تفوف ما يقدمه النصارى في هذا المجال ،بل كان مما يدهش كل من رأى أنهم كانوا يسكنون البيوت المتواضعة ، أما القصور الفاخرة والمباني الكبيرة فيهبونها للأعمال الخيرية [24].

د. **حماية مصالح الأمة :** لقد كان واضحا في استراتيجية الدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر أنها تكسب مصطلح الخلافة معان جديدة ، منها حماية طرق الحج ، والدفاع عن الأماكن المقدسة ، وحماية المسلمين في شتى بقاع الأرض ، وكل ذلك يندرج تحت مفهوم واسع كان بارزا في فكر العثمانيين ألا وهو الجهاد[25] ، ورغم ذلك فإن السلاطين العثمانيين كانوا يرون أن الدولة هي الهيئة التنفيذية والمعبرة عن رأي الأمة ، والمكلفة بحماية مصالحها، فمسؤلية الدولة ليست خاصة بالأمن والدفاع وإنما هي مسؤولة عن رعاية المصالح الاجتماعية وحماية بيت المال من الإسراف والتبذير والمحافظة على مصادر وموارد بيت المال وأهم موارد بيت المال:

- جمع الزكاة المفروضة وتوزيعها في مصارفها المشروعة .

- ترتيب الخراج على أملاك الدولة المعمورة وتحصيل عائداته للإنفاق العام على الجيش وتنمية المرافق العامة.

- جباية الجزية على المعاهدين مقابل إعفائهم من القتال مع المسلمين .

- تحصيل عشور التجارة على الواردات من خارج نطاق الدولة العثمانية.

- التوظيف بقدر الحاجة على أفراد الأمة سواء كان تطوعياً أو إلزامياً لإنفاقها في دروب الجهاد وسائر المصالح العامة طبقاً لقاعدة المصالح المرسلة.

[24] تاريخ الدولة العثمانية 564/2.
[25] أحمد زكريا الشلق ، العرب والدولة العثمانية من الخضوع إلى المواجهة :30

- تشغيل الموارد وحمايتها كالحمى والمناجم وإحياء الموات ، وتحصيل أنصبة الدولة منها لاستخدامها في مجالات الإنفاق الحكومي[26].

وهذه وصية أخرى من وصايا السلاطين العثمانيين تؤكد أن الإسلام بأحكامه وأخلاقه يمثل ركيزة الحكم في الدولة العثمانية ، وهي وصية السلطان محمد الفاتح لابنه وهو على على فراش الموت ، يقول الفاتح: (ها أنذا أموت، ولكني غير آسف لأني تارك خلفاً مثلك. كن عادلاً صالحاً رحيماً ، وابسط على الرعية حمايتك بدون تمييز، واعمل على نشر الدين الإسلامي ، فإن هذا هو واجب الملوك على الأرض ، قدم الاهتمام بأمر الدين على كل شيء ، ولاتفتر في المواظبة عليه ، ولا تستخدم الأشخاص الذين لايهتمون بأمر الدين ، ولايجتنبون الكبائر وينغمسون في الفحش ، وجانب البدع المفسدة، وباعد الذين يحرضونك عليها ، وسع رقعة البلاد بالجهاد واحرس أموال بيت المال من أن تتبدد ، إياك أن تمد يدك إلى مال أحد من رعيتك إلا بحق الإسلام، واضمن للمعوزين قوتهم ، وابذل إكرامك للمستحقين )[27].

وبهذه الوصية نتيقن أن خلفاء بني عثمان كانوا يسترشدون بالقرآن الكريم في وضع سياساتهم ، وأنهم باستلهام أحكامه استطاعوا السيطرة على قلوب الشعوب المسلمة قبل السيطرة بالقانون ، ولقد واضحا في وصايا آل عثمان الدعوة إلى الالتزام بأحكام الإسلام ، فدفعني هذا الاتجاه إلى عرض صورة مصغرة لمنهج الإسلام في تأسيس السلم الاجتماعي ، لتكون الحجة واضحة على من هاجم العثمانيين بجهل ، وليخزي الله من هاجمهم وهو على علم بأنهم مسلمون يلتزمون أمر دينهم ، سواء في السلم أو في الحرب ، مع المؤيد أو المخالف ، فما منهج القرآن في تحقيق السلم الاجتماعي؟ هذا السؤال نجيب عنه في المطلب الثاني من هذه الورقة .

---

[26] العثمانيون في التاريخ والحضارة :171،170.

[27] الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط :1/ 192

## 2. استراتيجيات السلم في القرآن :

منذ عرفت شيئا من معاني القرآن الكريم أحاول أن أعقد مقارنات بين ما يرسمه القرآن من مشاهد متشابة أو متناقضة ، وأحاول كذلك التدقيق في المفردات القرآنية سائلا : لم بدأ بهذه المفردة ؟ لِمَ لم يستخدم مرادفا لها مما عرفه العرب ؟ ما أثر ذلك على المعنى العام ؟ ما الدرس الذي ينبغي لنا أن نعيه من هذا السياق القرآني ؟ كل هذه الأسئلة وما شابهها كانت سببا في اختياري موضوع هذا المبحث ، فقد تساءلت لماذا كان ختام أول آي القرآن بعد البسملة بقوله تعالى (رب العالمين ) ؟ لماذا لم يكن (رب المؤمنين ) ؟ أو (رب المحسنين ) ؟ أو(رب المسلمين ) ؟ أو غيرها مما يطول سرده ؟ ولماذا ختم بسورة سماها سورة الناس ؟ ولماذا كان عدد مرات تكرار كلمة الناس أكثر من عدد مرات تكرار صفاته تعالى ؟ ولعل أول ما يتبادر إلى الذهن من جواب هو أن القرآن الكريم يؤكد من البداية وحتى ختامه على معان كثيره نذكر منها بعضا مما يتعلق بموضوع هذا المبحث ألا وهي :

أولا: أن رب هذا الكون ورازقه وخالقه والمستحق للعبادة وحده واحد ألا وهو الله ، وهذا وضح جلي منذ فاتحة الكتاب وحتى سورة الناس ، ولا يمكننا هنا سرد أدلته لكثرتها ، بل تكفينا الإشارة إلى رسالتها ومقصودها وغايتها . وكل ما في الكون عباد له يأتمرون بأمره ، وينزجرون بنهيه ، وليس ينبغي أن تكون لهم غاية سوى عبادته وتوحيده ؛ فهم متحدون في المصدر إذ خلقهم الواحد الأحد ، متحدون في الغاية فمنتهاهم إلى الفرد الصمد ، فلا يضيرهم اختلاف في هدف بسيط أو في عرض زائل ، وهم بهذا متناغمون متعاونون يخدم بعضهم بعضا ، ويشد أحدهم عضد أخيه ؛ فكل منهم يدرك علاقته بما حوله في الكون ، ويسعى معه إلى الهدف الأصيل ومنتهى الغايات وهو رضا الله .

ثانيا : أنه لافضل لأحد على أحد ، لا بلون أو عرق أو نسب أو حسب أو رزق أو خلق ؛ فالناس كل الناس خلق الله ، بل والكون كله يعبد الله ويسبحه ، ولكن المشكله هي قصور فهم البشر وعجزهم عن إدراك هذه الحقيقة (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا )[28] ؛ لذلك فلا ينبغي لمؤمن أن يفرح بإيمانه فيحتقر كافرا بكفره ؛ لأن الذي تفضل عليه بالإيمان وهداه إليه هو الله ، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا )[29] ، بل إن إيمان المؤمن ليس موجبا للتفاخر والمنة بل هو نعمة من الله يستحق الشكر عليها (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ

[28] سورة الإسراء :44
[29] سورة النساء :94

عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ )[30] فالمؤمن دآئما يدعو الله ليثبت قلبه على الإيمان ويعوذ به من الضلال بعد الهدى (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ )[31]

ثالثا : أن الثواب والعقاب في أمور الدين هي حق خالص لله تعالى دون غيره حتى النبي وهو النبي المكلف بدعوة الناس إلى الله وهدايتهم ليس له إلا الدعوة أما الجزاء فلله (وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ).[32]

وبهذه النظرة يؤسس القرآن للسلم تأسيسا لا يتزعزع ؛ فيبدأ بالفرد فيرسخ السلام داخله ، فيدعوه إلى الإسلام وهو الفطرة التي فطره الله عليها ، ( فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [33] وعندما يتفق المرء مع الفطرة فإنه يطمئن في نفسه ، ويذهب عنه التوتر والقلق والاضطراب الذي يعانيه من لا يعرف طعم الإيمان ، ويجد بإيمانه السعادة الحقيقية التي لا يحققها مال وثروة أو شهرة وسمعة أومقام أو سلطة . ويلاحظ أن القرآن جعل استراتيجية السلام الداخلي للفرد تقوم على أسس منها :

**أ. الإقرار بالدوافع والاحتياجات الفطرية للإنسان .**

إن القرآن الكريم كتاب أنزله خالق الإنسان وفاطره ، وعالم ظاهره وباطنه ؛ لذلك فلا غرو ولا عجب في أنه يخاطب الفطرة بكل مكوناتها ، ويعترف بأحوال النفس وأطوارها ، ولا يجحد من ذلك شيئا ، ولا يكبته ؛ فهو يعترف بأن :

- **الإنسان عجول :**

خلق الله الإنسان عجولا بطبعه يبادر الأشياء ويستعجل وقوعها ، ولا يصبر حتى تتحقق في موعدها المحدد ووقتها المؤقت ؛ فيرشده القرآن إلى الصبر وعدم استعجال الأمر

( خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ )[34] بل إن هذه العجلة لتوشك أن تودي به وبكل زينة الحياة التي وهبه الله ، فهو يدعو على نفسه أو ماله أو ولده ،ويستعجل العذاب ،

[30]سورة الحجرات :17
[31]سورة آل عمران :8
[32]سورة الرعد :40.
[33]سورة الروم : 30.
[34]سورة الأنبياء :37.

ولكن الله بفضله ورحمته يمنعه العذاب ويمنحه الخير ؛ لأنه عليم بخباياه خبير بنواياه ، فهو يختار له الخير ويعطيه إياه (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا) [35]

- **الإنسان جحود :**

فقد خلقه الله من العدم ، وغمسه بالعطايا والنعم ، وهو سريع النسيان ، شديد الجحود والنكران ، ينسب الفضل لنفسه في الخير ؛ فيقول ( إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي )[36] فإذا كان في ضر أو شدة لجأ إلى خالقه ، واعترف بمنقذه ورازقه ، فلما يأتيه من ربه المدد والعون صار متغطرسا متجبرا كأنه إله الكون (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا)[37]

ومع هذا فإن المنهج الرباني والنور الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يرفق بهذا الإنسان ؛ فيأخذ بيديه ، وفي رفق يحنو عليه ، فيشرح له أن هذا ما هو إلا امتحان ، وأن عليه أن لاينخدع مهما حدث أو كان (فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ) [38]

وهو في طلب الدنيا وخيراتها لايمل ولا يكل ولا يخجل أو يسأم ، فإذا مسه ما يراه بنظره المحدود وعقله الضيق شرا فإنه يسيء الظن بخالقه ، وينسى المنعم عليه ورازقه ؛ فيهوي في ظلمات اليأس ، وينشغل بما حل به من بأس(لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ)[39]

بل إن رحمة الله لهذا الإنسان لتجعله يغتر بمولاه وخالقه ، ويطغى ويتجبر ، ويتبختر وبتكبر ، ويلهيه ما هو فيه من رغد وحسن حال ؛ فينسى المرجع والمآل ؛ فيذكره القرآن في رفق ليأخذه بعيدا عن الشطط والضلال ، ويعيده إلى الجادة والصواب ( كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى)[40]

ورغم تجاوز هذا الإنسان الضعيف لكل حد ، ومجافاته لكل حق وعدل ، وظنه ظلما أنه ملك الكون فقال (فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)[41] رغم كل هذا فإن القرآن يرشد إلى

---

[35]سورة الإسراء :11.
[36]سورة القصص :78.
[37]سورة الإسراء :67.
[38]سورة الزمر :49.
[39]سورة فصلت :49.
[40]سورة العلق :6-8.
[41]سورة النازعات : 24.

الطريقة المثلى في الدعوة ، والأسلوب الأمثل لاستمالة القلوب نحو الإيمان (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)[42]

- **الإنسان يحب المال :**

إن حب الإنسان للمال غريزة فطرية يعلم الخالق أنه أودعها في نفس الإنسان ، وها هو القرآن يصرح بهذه الحقيقة في العديد من السياقات منها على سبيل المثال : قوله تعالى :(وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا )[43] وإذا لاحظنا بنية الجملة القرآنية هنا نجدها تعبر بالفعل المضارع الذي يفيد التجدد والاستمرارية ، ثم تؤكد ذلك بالمفعول المطلق وتزيد هذا التأكيد بوصف هذا الحب بأنه في ذروة الكثرة ، ويؤكد القرآن هذا المعنى بسياق آخر مستخدما الجملة الاسمية التي تفيد ثبات الوصف فيقول :(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)[44] وبنظرة سريعة إلى تكوين الجملة القرآنية هنا نجدها تبدأ بإنَّ التي تفيد التأكيد ثم يزيد ذلك تأكيدا باللام التي دخلت على الخبر ، ونلاحظ كذلك أن محور الجملة هنا هو الإنسان وما جبل عليه من حب المال ، ويلمس القرآن قلوب المؤمنين ليتخلصوا من هذا الحب المذموم فيذكرهم بأن لذة المال والدنيا كلها عاجلة زائلة ، لعلهم بما فطروا عليه من حب الخير لأنفسهم أن يعودوا إلى رشدهم فيعملوا للآخرة فهي الباقية فيقول : (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ)[45] وينتقل القرآن من التعريض إلى التصريح ، فيقارن بين الحياة الدنيا كلها ويصفها بأنها العاجلة الزائلة ، ولعل من المثير هنا أنه لم يقارنها بالحياة الأبدية في النعيم أو الجحيم بل قارنها بيوم واحد وهو يوم القامة ويصفه بأنه يوم ثقيل ، وهو كذلك على من لم يستعد له فيقول :(إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا)[46]

وغريزة حب المال كغيرها من السجايا التي منحها الله لبني البشر إذا استخدمت في الإطار الذي حدده الخالق تؤدي دورا مهما في إعمار الأرض ومهمة الخلافة فيها ، وهذا هو المقصد من نزول الإنسان إلى الأرض ، أما إذا تجاوز الحد وخرج عن الطوق بهذه الغريزة فإنه يندفع إلى الفساد والإفساد في الأرض وهو ما نهاه عنه خالقه ، (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا *كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ

[42]سورة طه : 43 ، 44.
[43]سورة الفجر : 20.
[44]سورة العاديات : 8.
[45]سورة القيامة : 20.
[46]سورة الإنسان : 27.

رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا)[47]

وفي هذه الآيات السابقة يؤسس القرآن الكريم لنموذج فريد في التربية لايمكن أن ترقى إليه مدارك البشر ؛ فقد جمعت الآيات الكريمة هذه كل دواء لهذا الداء ، فقد أعلنت منذ البداية أن من عمل للدنيا الفانية وحدها ولم يقصد بها وجه الله فلن يكون له فيها إلا ما أراده الله وكتبه له في الدنيا ، وفي مقابل ذلك ينتظره في الآخرة أشد أنواع العذاب المادي والمعنوي ، فليس الأمر قاصرا على العذاب في النار ولكن هناك ما هو أنكى منه وهو غضب الله عليه وطرده من رحمته ، وذمه في حين أنه يريد المدح حتى بما لم يفعل ، ولا تدع الآية مجالا للشك في تحقق وعيد الله لمن هوى في هذه الرذيلة ، فتؤكد في ختامها أنه سيهزم بقصده شر هزيمة ، وأن عاقبة قصده هي الخسران لا محالة ، كل هذه المعاني وغيرها عبر عنها القرآن بكلمة واحدة ألا وهي ( مدحورا ).

والآيات تؤكد أن الجزاء من جنس العمل ، وهو مقتضى العدل الإلهي ، وأن الأعمال بالنيات ، وأن العبد إذا أراد أن يرتقي إلى الجنان فعليه ألا يبقى حبيس الشهوة عبد الشيطان ، فالرقي لا يدركه إلا من ارتقى بنفسه فطهرها من الهوى ، والسقوط لا يبتلى به إلا من اتبع الشهوات فخاب وغوى [48] ، وهنا ينبغي أن نسجل أن القرآن الكريم يرسم الصورتين بأدق التفاصيل ، فترى في الأولى من تعجل وطلب العاجلة يضيع مستقبله الدآئم الذي يعجز اللسان عن وصفه ، والعقل عن إدراكة بلحظة زائلة وهفوة خاسرة ، فكأنك تراه نادما إذ لاينفع الندم ، متحسرا متمنيا العودة ليصحح ما ارتكبه من أخطاء ، يغبط من كان يسخر منهم بالأمس بل ويصفهم بالحمق والغباء ، يكتوي بنار ما دعاه لنفسه من الفراسة والذكاء .وفي الصورة الثانية تجد من طلب رضا الله فرضي عنه وأرضاه ، تجده شاكرا مشكورا ، مكرما مسرورا ، لم لا وقد فاز فلا خسران ، ونجا فلا ابتلاء ولا امتحان ، وتاجر فربح البيع ؟ . هاتان الصورتان تدفع من كان له عقل إلى اختيار الطريق الصواب ، والتضحية بالنفس والنفيس ليفوز بسلعة الله الغالية ، إنه هدي القرآن للنفوس ، وأسره للقلوب ، وهذا ما عجز فصحاء العرب عنوصفه فسموه بالسحر .

ولعل ما ذكرناه من أمثلة فيما يتعلق بصفات الإنسان الفطرية وصراعاته الداخلية يكفي لبيان منهج القرآن الكريم في التعامل مع هذه النزعات ، واستراتيجيته في علاج تلك

---

[47]سورة الإسراء : 18-.21.

[48] وهبة بن مصطفى الزحيلي التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، دار الفكر المعاصر – دمشق الطبعة الثانية ، 1418 هـ : 12/ 39.

الآفات ، فيكون قد حان الوقت لبيان استراتيجية القرآن الكريم في البناء ، فهو لا يهدم بل يبني ويقوي القلاع الإيجابية لتتغلب على النزعات السلبية ، وهذا ما يتفرد به القرآن في الجوانب التربوية .

**ب. يربي القرآن المسلم على أنه بفضل الله ولله ومع الله :**

فهو بالله الذي خلقه من العدم ، وكأننا أسمع نداء الحق يهز أعماقنا ،ويهيج أشواقنا ، ويدفعنا دفعا إلى السجود ، ويعلق أهداب قلوبنا بالله خير معبود ، لم لا وقد خلقنا بيديه الكريمتين ، وشملنا برحمته ورعايته الواسعتين ،ألا ترى ابن آدم إذا اكتشف من علم الله كشفا أو صنع مما خلق الله له ويسر صنعا ألا تراه يختال فرحا بكشفه مغرورا بصنعه ، يفاخر أقرانه ويباهي إخوانه ، ألا تراه في أحسن أحواله - إذا كان من الشاكرين- معجبا بما لديه ، محبا لصنع يديه ، يتعهده بالتجويد والتحسين ،ويحاول أن يصل به إلى ما لا يدركه أحد من العالمين ، فإن وقع ناظرك على شيء من ذلك فقل الحمد لله رب العالمين ؛ ألا تسمع قوله تعالى : (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)[49]، وقوله: (وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ)[50]، وقوله: (يا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)[51].وغيرها من الآيات الكثيرة التي ترسخ في وجداننا ، وتغرس في يقيننا أن الله خلقنا على أكمل الهيئات وأحسنها. فإننا نمشي قائمين منتصبين على رجلين ، ونأكل مرفوعي الرأس بيدينا. وغيرينا من الحيوانات يمشي على أربع، ويأكل مطأطئ الرأس بفمه ، وقد خلقنا على حالة صالحة للكمال والخير ، نعرف الخير ونهتدي إليه ، ونميز الشر فنتجنبه ، وهذا هو أصل الفطرة التي فطر الله الناس عليها .[52]

وما أعذب أن يمس قلبي من جديد قوله تعالى : {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} فلقد تضمن هذا الجواب لذلك القسم الوارد في بداية السورة أكبر مظاهر القدرة والعلم والرحمة وهي موجبة للإيمان بالله ، وتوحيده ولقائه وهو ما كذب به أهل مكة وأنكروه ، وآذوا رسول الله وعاندوه ، وتعلمنا الآية الكريمة درسا في خلق الإنسان ؛ فخالقه ذو قدرة حقا ويقينا ، وتعديل خلقه بنصب قامته وتسوية أعضائه وحسن سمته وجمال منظره دال على علم الله وقدرته ، ونفاذ حكمه وإرادته ، وقاطعة يقينا بجبروته وعظمته ، بل وهي موجبة للإيمان بالله ولقائه ؛ إذ القادر على خلق الإنسان اليوم وقبل اليوم قادر على خلقه غدا كما شاء متى شاء، ولا يرد هذا إلا أحمق

---

[49]سورة التين :4

[50]سورة غافر :64

[51]سورة الانفطار :8

[52] أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس ، البحر المديد دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الثانية 2002 م - 1423 هـ :8/ 496 ، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير - الطبعة التونسية دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - 1997:2/ 303.

جاهل،أومعاند غافل ، ثم ألا يكفي دليلا على حسن الخلق والتقويم أن أقبح الناس أجمعين لا يرضى أن يكون على غير هيئته التي خلقه الله عليها ، ويأبى أن يكون من أظرف الحيوانات أو يضاف إليها ؟!! ألا تسمع قوله تعالى : (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)[53]

وما دام ابن آدم عاجزا عن البقاء على قوته ونضارته ، مفلسا إذا حاول الحفاظ على هيئته ، وما دام عاجزا أن يحدث لنفسه - في حال قوته وكمال عقله وبلوغ أشده- عضوا من الأعضاء ، ولا يمكنه أن يزيد في جوارحه جارحة ،أو يبقيها على ما كانت عليه بالبارحة ؛ فيدله ذلك على أنه في حال نقصه وأوان ضعفه عن فعل ذلك أعجز. وقد يرى نفسه شابا ثم كهلا ثم شيخا وهو لم ينقل نفسه من حال الشباب والقوة إلى حال الشيخوخة والهرم ، ولا اختاره لنفسه ولا في وسعه أن يزايل حال المشيب ويراجع قوة الشباب ، فيعلم بذلك أنه ليس هو الذي فعل تلك الأفعال بنفسه ، وأن له صانعا صنعه وناقلا نقله من حال إلى حال ، ولولا ذلك لم تتبدل أحواله بلا ناقل ولا مدبر. ولذلك قال بعض الحكماء : إن كل شيء في العالم الكبير له نظير في العالم الصغير ، الذي هو بدن الإنسان .[54]

فالإنسان كما قال الشاعر:
يا تائهاً في مهمهٍ عن سره انظر تجد فيك الوجودَ بأسره
أنت الكمال طريقة وحقيقة يا جامعاً سر الإله بأسره

وقوله ثم رددناه أسفل سافلين وذلك بهرم بعض أفراده والنزول بهم إلى ما أسفل من سن الطفولة حيث يصبح الرجل فاقدا لعقله وقواه فيفقد قواه العقلية والبدنية وقوله (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) وهو أن ما كانوا يقومون به من الفرائض والنوافل وسائر الطاعات والقربات لا ينقطع أجرهم منها بكبرهم وعدم قيامهم بها في سن الشيخوخة والهرم والخرف بخلاف الكافر والفاجر والفاسق فليس لهم أعمال لا تنقطع إلا من سن منهم سنة سيئة فإن ذنبه لا ينقطع ما بقى من يعمل بتلك السنة السيئة. وقوله تعالى (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ) أي فمن يقدر على تكذيبك يا رسولنا بعد هذه الآيات والحجج والبراهين الدالة على قدرة الله وعلمه ورحمته وحكمته فمن يكذب بالبعث والجزاء على الكسب الإرادي الاختياري في هذه الحياة من خير وشر فإنه وإن كذب بالدين وهو الجزاء الأخروي على عمل المكلفين في هذه الحياة الدنيا فإن هذا التكذيب قائم على أساس العناد والمكابرة إذ الحجج الدالة على يوم الدين والجزاء فيه تجعل المكذب به مكابرا أو جاحدا لا غير.

---

[53]سورة الذاريات :21

[54] القرطبي أبو عبد الله تفسير القرطبي( الجامع لأحكام القرآن )، تحقيق أحمد البردوني القاهرة 1372هـ :20/ 114.

ثم إن الله خلقني لعبادته وخلق من أجلي كل شيء ، وجعلني مع حسن الخلق وسعة الرزق ، ونعمة العقل جعلني خليفة له في أرضه ، وسخر لي الكون بطوله وعرضه ، ولو فكرت فيما جعل الله فيَّ من دلائل القدرة وحسن الصنعة لقادني إلى السجود لله خير معبود ؛ فقد وفيك طوى في ابن آدم انتشر من الأدلة في الكون فما أقبح من عمي عن هذه البراهين ؛ فصار بظلمه من الضالين .

وإني لأعجب أشد العجب ممن يقرأ القرآن الكريم ولم يدرك أن الخلق في القرآن خلقان :خلقنا نحن البشر، وخلق لنا وهو كل مافي الكون من نعم لا تحصى وآلآء لا تنسى ، وفضل يحيط بنا من كل حدب وصوب ، وكيف يشغله ما خُلِق له عن خالقه ؟

والمؤمن بإيمانه هذا قد أسلم لله كل أمره ؛ فاستراح من كل هم ، ونجا من كل كدر وغم ، فقد استجاب لنداء ربه : (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ )[55] فالآية واضحة الدلالة يدرك منها العالم والعامي أن كل حياة العبد يجب أن تكون لله ، في كل حركة أو سكنة ، وأنه لاينبغي لهذا المعنى أن يغيب عن ناظري المؤمن مهما كان وأياً كان ، بل إن موت العبد لا ينبغي أن يكون كذلك إلا لله ، وهو بهذا الإيمان لا يتعامل في حياته اليومية مع العباد بل يتعامل مع رب العباد ، فلن يكدر صفو هذا السلام الداخلي والأمن النفسي مظلمة من هنا أو هناك ، أو إساءة جاهل ، أو بطش ظالم ، أو غصب غاصب ، فإن حقه محفوظ سيرده الله عليه إن عاجلا أو آجلا ، وليس معنى هذا أن يكون المؤمن مطاوعا لكل ظالم ، مستسلما لكل غاشم ، بل عليه أن يدفع عن نفسه الظلم بكل وسائل الدفع السلمية والقانونية ، فإن عجز فلا يصل بفضل هذا الإيمان إلى الانهيار أو الانفجار ، فيهدد السلم والأمن من حوله ، بل يحيل الأمر إلى صاحبه والقادر عليه ، فيقتص له ممن ظلمه ، ويرد عليه كل ما غصبه ؛ فإن (اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ )[56] ، ولا فرار من الموت ولقاء الله والحساب (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)[57] ، وقد يظن المنافق أنه يفلت من العقاب بحلاوة اللسان والاعتذار مع إضمار الشر والكفر ولكن اعتذاره لا يجدي (يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ )[58] ؛ فإذا كان الأمر كذلك فما حاجة المؤمن إلى سفك الدماء وتهديد الأمن والسلم ، إنه لا يحتاج أصلا إلى الحقد والضغينة ؛ فحقه محفوظ مضمون معلوم بعلم من لايغيب عنه مثقال ذرة ، ولا يضيع لديه حق ولو مرة .

---

[55] سورة الأنعام :162 .
[56] سورة الحج: 69.
[57] سورة الجمعة : 8
[58] سورة التوبة : 94 .

وهو مع الله ، أي أنه لا يحقق السعادة الحقيقية ، ولا يستتب له الأمن والسلام الدخلي إلا إذا تيقن أنه مع الله ، وأن الله معه ؛ فنفسه لايمكن أن تسكن إلا إذا جلاها وشرفها باتباع منهج خالقها ، وهذا هو ظورها للنور مشرقة ، وللمعاصي مفارقة ، أما من غمسها في المعاصي حتى أخفاها ، فلا يهنأ له بال ، ولا يسعد في أي حال ، فيتطاير الشر بين يديه ، ويعمي الظلام عينيه ؛ فيتخبط في ظلمات الضلال ، وتكبله هواجسه كالأغلال ، فمصيره مع الكفار ، ومأواه دار البوار.

ومهما امتلك من متاع الدنيا فإنه قليل زائل ، يضيع به كثيرا دائما ، ويأتي يوم القيامة نادما (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ )[59] وكما هو واضح جلي من بيان هذه الآية فإن الله وحده هو الذي يوسع الرزق لمن يشاء ، ويضيق على من يشاء ، ولكن الذي انحرف عن منهج الله وأعرض عن الحق لاينفعه فرح بنعم الله في الدنيا ، ولا يجديه ندم على ما فرط في الآخرة . بل يذهب القرآن أبعد من ذلك ، فيجمع كل ما يمكن أن يتمناه إنسان من النعم ، ثم يعرضها كاشفا أنها مزينة مزخرفة زخرفا باطلا غير صحيح ، فإذا كانت كذلك فهل لعاقل أن ينخدع بها ؛ فيسقط في مستنقعها الذي كشفت عنه الآيات سريعا ألا وهو مستنقع الشهوات ، نعم الشهوات بكل ما حملها القرآن من معاني الخسة والدناءة ، وبكل ما رسم لها من صور منفرة ، لا يليق بنفس كريمة أن تنحدر إليها ، أو تسقط فيها ، أو تهفو إليها ، ثم تختم ببيان أن أحسن وأرقى وأنقى ما يمكن أن يأوب إليه مخلوق ويتمناه هو عند الله ، ألا وهو الجنة ، وهي الصورة السعيدة التي دآئما ما يرسمها القرآن لأهل الآخرة في مقابلة الصورة التعيسة لأهل الدنيا (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)[60].

بل يمضي القرآن في إبراز أهم المعاني التي يغفل عنها الغافلون ، وكأنه يزلزلهم ، ويقرعهم قرعا لينتبهوا ، لعلهم يعودون من غفلتهم ، ويوافقون فطرتهم فينعموا بالسلم في الدنيا والأمن في الآخرة ، حيث لا أمن فيها إلا من أمنه الله ، فيطرح القرآن القضية طرحا جديدا ، ويضع لها النهاية والخاتمة ، ويكشف عن النتيجة الحاسمة ، فيبين أن من لم ترتفع به فضيلة ، ولم يترفع عن الرذيلة ، فكانت الدنيا همه وسدمه ،ومطلبه ومقصوده فهو أحمق ينتحر بحرصه ، ويغرق في لجات سرابه ؛ إذ إن طلبه للدنيا ومتاعها - رغم كل ما بلغه من إرشاد – لن يثمر له إلا عناء فيها وعذابا في الآخرة ؛ فإن الله لايعطي من الدنيا إلا ما شاء ولمن يشاء الله ، وليس لكل من طلبها ، ولهث خلفها ، ثم تكون نهايته الذلة والمهانة ، والطرد من رحمة الله ؛ فيخسر الدارين ، فبئست التجارة الخاسرة ، وما أقبح الشهوات الآسرة ، أما

[59] سورة الرعد : 26.
[60] سورة آل عمران : 14 ، 15.

من قصد الآخرة وسعى لها ، وكان سعيه مقرونا بالإيمان فنعم قراره الجنان ( مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (18) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (19) )[61] .

بل إن هذا المتاع القليل في حد ذاته يكون سببا للتعاسة في الدنيا قبل الآخرة وإن بدا أنه في الدنيا من السعداء ( وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)[62] ، وهذه التعاسة ليست إرادته هو ، بل كان يلهث وراء السعادة الزائفة فلما أدار للحق ظهره ، وأقبل على الباطل بوجهه وقلبه أعطاه الله ما يشغله بل يعذبه في الدنيا حتى يلقى الله كافرا ؛ فيستحق بذلك النار وبئس القرار ( فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ )[63] .

ثم إن هذا الإيمان ليقود المسلم إلى أرقى سلوك بشري ، وأعلى ذوق عرفه آدمي ، بل يصل به في الطهارة والرقي إلى السلوك الملائكي ؛ ألا ترى هذا الإيمان يرتقي بصاحبه الدرجات العلا درجة درجة ؛ فهو يدعوه إلى كظم الغيظ ويجعله من صفات المؤمنين التي استحقوا بفضل الله وبها الجنة ، بل وصفهم الله بالإحسان وبدوام محبته تعالى لهم (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ )[64] والقرآن يرتقي بأهله درجة أخرى فيدعوهم إلى العفو بعد كظم الغيظ ،بل لا يدعو المسلم فقط إلى العفو عمن ظلمه ، وإعطاء من حرمه ، ووصل من قطعه ، ورغم صعوبة ذلك فقط على النفس الإنسانية ، وما يعلمه الخالق من طباع البشر السفلية ، مثل الأنانية وحب الانتقام ، رغم كل ذلك يدعوه القرآن الكريم ليس إلى العفو فقط بل والصفح معه ، فمن عفا ولم يصفح فلن يكون قد أطاع الله الطاعة الكاملة التي تأمره بها الآيات (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (22)[65] . قال ابن سيرين: حلف أبو بكر رضي الله عنه، في يتيمين كانا في حجره، وكانا فيمن خاض في أمر عائشة، أحدهما مسطح وقد شهد بدراً، وقد أشهد الله تعالى أن لا يصلهما ولا يصيبان منه خيراً، فنزلت هذه الآية . وفي الخبر: "من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير". وهو معنى قوله تعالى: (ولاَ تَجْعَلُوا اللهَ عُرضةً لأَيْمَانِكُمْ)[66].

---

[61] سورة الإسراء: 18 ، 19.

[62] سورة طه : 124.

[63] سورة التوبة :55 .

[64] سورة آل عمران :134.

[65] سورة النور : 22،21.

[66] عماد الدين بن محمد الطبري ، المعروف بالكيا الهراسي (المتوفى : 504هـ) أحكام القرآن للكيا الهراسى : 1 / 108 ، محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي 1393 هـ دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان1415 هـ- 1995 م أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن :6 / 171..

ومن بناء اللبنة الأولى للمجتمع المسلم وهي الفرد ، ينطلق القرآن لبناء مجتمع متماسك مترابط ، يشد بعضه بعضا ، يأتمر بأمر الله ، وينزجر عن نواهيه ، هذا المجتمع تحقق فيه السلام الداخلي للفرد ؛ فتحقق به سلام المجتمع ، وهذا هو سر التقدم والبناء في كل الدول الإسلامية عبر التاريخ ، وهذا هو حال الدولة العثمانية ، فلقد نقل الإسلام الأتراك من حياة البداوة إلى حياة المدنية والحضارة ، وهذا هو أثر التربية القرآنية [67].وإذا قمنا بمقارنة وصايا مؤسس الدولة العثمانية والفاتح بمبادئ القرآن الكريم نجدها تعبر عن هذه المبادئ بشكل واضح .

إن رسوخ الفكر الإسلامي وحضارته في أذهان العثمانيين جعلهم أقدر على التعامل مع حضارة الآخر ، دون التنازل عن مباديء حضارتهم ، وهو الأمر الذي يسر لهم حل أكبر المشاكل التي يعانيها عالمنا اليوم ، وهي المشكلة التي تسمى صدام الحضارات[68]

أما إذا نظرنا إلى تطبيقات العثمانيين في السلم والحرب نجدهم يدافعون عن الأمة الإسلامية ، ويفضلون السلم على الحرب إلا إذا هددت دولتهم أو إحدى الدول الإسلامية ، فلم يكن العثمانيون احتلالا يريد ثروات الشعوب ، ولم يعمل يوما على تطهير الأراضي من أصحابها كما يفعل الاستعمار في ثوبه الحديث ، فلم يجبروا أحدا على تغيير لغته ، ولم يحاولوا تغيير ثقافة الأمم التي دخلت تحت حكمهم كما فعل الغرب الاستعماري مثلا في إفريقيا ، ورغم أنهم لم يكونوا يؤمنون ببعض العادات لدى الشعوب التي حكموها لم يتدخلوا لتغييرها ، بل كان يحضر بعض المراسم التي تخالف عقيدتهم ممثل عن الباب العالي ، ومثال ذلك احتفال المصريين السنوي بالنيل ، حيث كانوا يذبحون خروفا للنيل ويلقونه فيه كاملا أثناء هذه المراسم ، لكن العثمانيين لم يحاربوا ذلك .

وفي هذا الإطار يمكن تفسير الحملات التي قام بها العثمانيون ضد أوربا ، لتخفيف الضغط عن المغرب العربي وحمايته من الغزو الإيطالي ، وكذلك لتخفيف الضغط عن الدولة الإسلامية في الأندلس ، فلقد حالت مدافع الدولة العثمانية دون إفناء مئات الآلاف من المسلمين في الأندلس[69] ، ولقد استخدم العثمانيون كل الوسائل للدفاع عن المظلومين وتحقيق السلم دون

[67] جورجي زيدان مصر العثمانية ط. مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة 2012 : 17.

[68] حسن الضيقة الدولة العثمانية الدولة والمجتمع والسلطة: 64 .

[69] تاريخ الدولة العثمانية :195/1 .

حرب ؛ فأرسل السطان قايتباي راهب دير فرانسيسكن الكاثوليكي كسفير إلى تورليدو ، يطلب إليه أن يرفع يده عن غرناطة ، وإلا فسوف يقتل كل المسيحيين في دولته ، وسيغلق فلسطين أمام الحجاج المسيحيين ، ولكن إسبانيا لم تعر ذلك التهديد قيمة ؛ لعلمها أن المسلمين لا يقتلون رعاياهم من غير المسلمين ، ولم يمنعوا المسيحيين من القدس [70]، ولعل الأسبان كانوا متأكدين من ذلك فهم قد قتلوا أو هجروا أو نصروا ثلاثة ملايين من العرب في الأندلس عندما دخلوها ، وقد أمهلوا اليهود عام 1492 م أربعة أشهر لمغادرتها في حال عدم قبول الكاثوليكية ، وعند رحيلهم لا يأخذون معهم أي ثمين من ممتلكاتهم ، أما البرتغال فقد أصدرت في عام 1497 م أمرا بهذا المعنى ، وزادت عليه أن اليهود الذين يغادرون البلاد لايصطحبون أبناءهم الذين يقل عمرهم عن 14 عاما [71]، أما العثمانيون فهم مسلمون يطبقون تعاليم الإسلام الذي يمنع مجرد أذى أي ذمي أو معاهد في ديار الإسلام ، ولقد اعترف الأوربيون أنفسهم أن كل ملوك الكاثوليك مدينون بحياتهم للسلطان سليمان القانوني ؛ فهو الذي أنقذهم [72]، ولقد كان الأرثوذوكس كذلك يعترفون بفضل السلطان محمد الثاني ، وكانوا يرونه حامي دينهم [73]، وفي هذا الإطار تندرج حملات العثمانيين إلى الشرق الأقصى لتخفيف الضغط على الممالك الإسلامية في الهند ، ومحاولة الدفاع عنها ضد الغزو الإنجليزي .

أما حروب الدولة العثمانية مع الصفويين فلم تكن إلا لدفع مهاجمة الدولة الصفوية لحدود العثمانيين ، وكذلك لما ثبت من خيانة الصفويين ، واتفاقهم مع الصليبيين ضد الدولة العثمانية ، ولم تكن هذه الحرب مذهبية بل كانت استراتيجية اقتصادية [74] ، وكذلك عندما اتفق المماليك في مصر مع الصفويين حاول السلطان سليم بالطرق الدبلوماسية حل القضية ، لكن المماليك رفضوا وأرسلوا جيشا إلى الشام ، وقد اعتبر العثمانيون ذلك حشدا ضدهم ؛ فلم يكن أمامهم إلا حربهم ، وقد أورد بعض المؤرخين أن المماليك أرسلوا سفيرا يطلب من السلطان ألا يحاربهم ولكنه رفض وأهان السفير لما علمه من معاونة المماليك للصفوين

---

[70] تاريخ الدولة العثمانية :193/1.

[71] تاريخ الدولة العثمانية196/1 .

[72] تاريخ الدولة العثمانية284/1 ، 285 .

[73] تاريخ الدولة العثمانية :181/1 .

[74] أحمد زكريا الشلق ، العرب والدولة العثمانية من الخضوع إلى المواجهة :24- 27.

[75]. وقد كان إيواء المماليك للأمراء الفارين من الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم من أسباب فتحه لمصر والشام [76].

ولعل من أهم عوامل تثبيت السلم الاجتماعي في الدولة العثمانية التسامح ؛ فقد كان العثمانيون متسامحين مع الآخر ، لايجبرون أحدا على ترك عاداته وإن خالفت عاداتهم أو حتى دينهم ، ولا يعارضون أحدا في عاداته بل يقبلونها على أنه نوع من التنوع الثقافي ، مما أبهر غير المسلمين فاعترفوا بذلك في كتبهم [77] .وقد وصف بعض المؤرخين الغربيين الدولة العثمانية بأنها – إلى جانب كونها أكبر دولة إسلامية – أكبر دولة مسيحية وموسوية ، حيث عاش في ظلها كل هؤلاء في أمن وسلام ، وقد كانت قاعدة الشرف عند العثمانيين تقول : الشرف من العمل وليس من النسب [78].

هذا الدور الذي ألقته الدولة العثمانية على كاهلها هو الذي حدا بالشعوب الإسلامية وعلماء المسلمين للقيام بالثورات ضد الاحتلال الغربي في صوره المختلفة ، والدعوة إلى العودة إلى التوحد تحت مظلة الدولة العثمانية ، ولذا فقد كان الشعب المصري بقيادة علماء الأزهر ينظرون إلى الغزوة الفرنسية على أنها غزوة صليبية تستهدف دينهم ، وتستهدف الخلافة الإسلامية ، وما كانت ثورتا القاهرة الأولى والثورة الثانية في الحقيقة إلا حركة جهادية تستهدف إنهاء الحكم الفرنسي النصراني لمصر، وإعادة "مصر " إلى حظيرة الخلافة العثمانية الاسلامية ، لقد كان المصريون – كغيرهم من الشعوب العربية والمسلمة – يدركون أن العثمانيين والمماليك كانوا مسلمين ، وأن مصر حينما كان يحكمها المماليك ، إنما كانوا يحكمونها باسم السلطان العثماني المسلم ، وكذلك لم ينظروا إلى السلطان العثماني على أنه سلطان المسلمين فحسب بل نظروا إليه على أنه خليفة المسلمين[79] .

وعندما احتل الفرنسيون مصر حاول بونابرت خداع الشعب المصري بما عُرف "بالسياسة الاسلامية الوطنية" التي كان هدفها توفير أسباب الحياة للفرنسيين وترويض المصريين بشتى الأساليب على قبول حكم أجنبي عنهم ولقد اعتمدت السياسة الفرنسية ثلاثة دعائم:

1- التظاهر باحترام الدين الإسلامي والمحافظة على تقاليد أهل البلاد وعاداتهم.

---

[75] محمد فريد تاريخ الدولة العثمانية ط. محمد أفندي مصطفى ، مصر 1893 :55-60 .
[76] أحمد فؤاد زكي ط. الزهراء للإعلام العربي مصر 1995 :69-71 .
[77] تاريخ الدولة العثمانية 571/2.
[78] السابق 577/2 .
[79] الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط : 1/ 433 .

2- محاولة انتزاع المصريين من أحضان الخلافة العثمانية .

3- إنشاء حكومة وطنية من "عقلاء" وأفاضل المصريين.

غير أن هذه السياسة فشلت فشلاً ذريعاً في تحقيق أهداف بونابرت ، والدليل على ذلك تلك المقاومة الاسلامية الشديدة التي انطلقت تقاتل جنوده أينما ساروا أو حلوا في الدلتا والصعيد ، ثم الثورات التي قام بها المسلمون في القاهرة[80] . وقد حاولت الخلافة العثمانية إنقاذ مصر من الفرنسيين ؛ فأعلن الباب العالي الحرب على فرنسا وأصدر أوامره بإلقاء القبض على القائم بأعمال السفارة الفرنسية وجميع رعايا فرنسا في العاصمة العثمانية وإلقائهم في السجون. ولم تلبث وزارة الخارجية العثمانية أن دخلت مع انجلترا من جهة ومع روسيا من جهة أخرى في مفاوضات أسفرت عن عقد محالفة دفاعية هجومية بين روسيا وتركيا (25 ديسمبر 1798م) وعن عقد محالفة أخرى بين إنجلتر وتركيا (5 يناير 1799م) ، وكان العثمانيون يقومون في بلاد الشام باستعدادات جهادية ضد الحملة الفرنسية في مصر، مما جعل بونابرت يتخذ قراراً بأن يسبق أعداءه في شن هجوم عليهم قبل أن يهاجموه ، فكانت حملته على بلاد الشام (فبراير - يونيو 1799م) التي تمكنت من ضرب القوات العثمانية المتجمعة هناك ، إلا أنها لم تستطع أن تحطم قوات أحمد باشا الجزار بسبب فشلها في الاستيلاء على عكا. وبعد عودة الحملة الى مصر انتصر بونابرت في معركة أبو قير البرية 25 يوليو 1799م على قوة عثمانية اتخذت طريقها في رودس إلى مصر[81].

**الخاتمة**

نشأت الدولة العثمانية في بيئة جهاد ودفاع عن الإسلام ، وأسسها قادة تربوا على هذا الدين ، فاتخذوا من القرآن دستورا ، ومن السنة سراجا منيرا ، جعلوا رضاء الله غايتهم ، والجهاد والذب عن الإسلام هدفهم في حروبهم وسلمهم ، وقد كانت تعاليم واضحة في ذهن مؤسسي هذه الدولة ، فتواصوا للعمل بها .

ولقد كان أثر التربية القرآنية واضحا في سلوك حكام الدولة العثمانية ؛ لذلك عملوا على إرساء السلم في مجتعهم ، وقد اعتمدوا في ذلك استراتيجية تتوافق مع المنهج القرآني القائم على التجميع لا التفريق ، فلم يكن لدى العثمانيين التعصب لقومية أو عرق ، بل لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنهم كانوا لا يتعصبون حتى لدينهم ، لذلك عاش في دولتهم جميع الملل والنحل ، ولجأ إليهم المضطهدون في العالم ، ومنهم اليهود الذين فروا من هتلر ليحميهم العثمانيون ،

[80] إسماعيل ياغي ، العالم العربي في التاريخ الحديث ط.دار المريخ الرياض 1995: 209/1.

[81] الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط : 1/ 436 .

ويقدموا لهم العون والعيش الكريم في دولتهم ، فما كان منهم إلا أن عملوا على هدم الدولة العثمانية ، فعضوا اليد التي امتدت لهم .

لم يكن العثمانيون يتدخلون في شكل الإدارة المحلية إلا إذا أضرت بالدولة ، فلم يجبروا أحدا على تغيير لغته ، ولم يحاولوا تغيير ثقافة الأمم التي دخلت تحت حكمهم كما فعل الغرب الاستعماري مثلا في إفريقيا ، ورغم أنهم لم يكونوا يؤمنون ببعض العادات لدى الشعوب التي حكموها لم يتدخلوا لتغييرها ، بل كان يحضر بعض المراسم التي تخالف عقيدتهم ممثل عن الباب العالي ، ومثال ذلك احتفال المصريين السنوي بالنيل ، حيث كانوا يذبحون خروفا للنيل ويلقونه فيه كاملا أثناء هذه المراسم ، لكن العثمانيين لم يحاربوا ذلك .

وكان السلم الاجتماعي لدى العثمانيين مقدم على كل شيء ، فكانوا لايحاربون إلا إذا تهدد هذا السلم ، وكانوا يفضلون عقد المعاهدات على الحرب حتى مع أعدائهم ، فلم يحاربوا الصفويين إلا حينما تأكدوا من اتفاقهم مع الصليبيين وتحالفهم معهم ضد الخليفة المسلم ، وعندما اتفق المماليك في مصر مع الصفويين أرسل السلطان سليم إلى الغوري يطلب حقن دماء المسلمين ، ولكن الغوري رفض ، وعندما دخل مصر ترك حكمها للمماليك ؛ فكانوا يحكمون باسم السلطان .

ولكون الدولة العثمانية دولة إسلامية ، حاربت أعداء الإسلام ، ودافعت عن المسلمين في كل مكان من العالم ، فقد ظلمها أعداؤها حين بنوا دراستهم لها على أساس الكراهية والحقد ، وظلمها أحفاد مؤسسيها وأحفاد المسلمين الذين دافعت عنهم الدولة عندما تعلموا التاريخ من الغرب الحاقد ، وإن من أكبر الأكاذيب التي حرص أعداء الإسلام على نشرها أكذوبتان متوازيتان :

الأولى: موجهة إلى البلاد العربية ، ومضمونها أن العثمانيين دولة محتلة ، لاتريد للعرب خيرا ، بل تريد سلب خيراتهم ، وتهجير علمائهم إلى إسطنبول ، ولا تهتم بتطوير أي شيء في البلاد العربية .

الثانية : موجهة إلى الأتراك ، ومفادها أن العرب خونة ، لايمكن الوثوق بهم ، فهم قد طعنوا العثمانيين في ظهورهم ، وحاربوا ضدهم في صفوف الأوربيين .

وبهاتين الكذبتين يضرب أعداء الإسلام عصفورين بحجر واحد ؛ فيتحقق لهم ما تمنوه من تفريق الأخوة القائمة على أساس الدين ، ويضعف كل من الأتراك والعرب ؛ فيستطيع الغرب السيطرة على الجميع ، وهم في هذا يطبقون المثل القائل ( فرق تسد ) ، فلو نظرنا إلى التاريخ نجد أن كلا من العرب والأتراك قد جهز جيوشا لنصرة الآخر في حربه ضد الصليبيين ، فقد كانت أوربا تخشى تدخل البحرية المصرية لصالح الدولة العثمانية ، وتحسب لذلك ألف حساب ، وظل اسم السلطان عبد الحميد يذكر في خطب الجمعة ، ويدعى له بالتوفيق والسداد حتى بعد سقوط الخلافة بفترة طويلة ، بل إن من يريد التحقق بذاته من كذب هذا الادعاء يمكنه أن يقوم بزيارة إلى مقابر الشهداء في تشنكلا التركية ، وسوف يرى بأم عينيه مقابر بنيت في عهد أتاتورك تضم ما يقرب من الألف شهيد من العرب ، سقط دفاعا عن تركيا المسلمة ، هذا هو المعروف ناهيك عن الذين لم يعرفوا ، وقد أوردنا في ثنايا هذا البحث بعض الحروب التي قام بها العثمانيون لتحرير البلاد الإسلامية من احتلال الغرب الصليبي .

إن من يصدق مثل هذه الدعاوى التي تسقطها كل الوثائق والحائق التاريخية كمن يصدق أن العثمانيين ارتكبوا مجازر للتطهير العرقي ضد الأرمن ، وهو ما تنطق الأحداث والوثائق التاريخية ببطلانه ، أو كمن يصدق أن داعش نبع فكرها من الإسلام ، أو أن دولا مسلمة تدعمها ، وليس حاله بأفضل ممن يصدق أن أمريكا جلبت للعراق الحرية والسلام ، أو أن الغرب حريص على سلامة السوريين وأمنهم في بلادهم اليوم ، هذا هو منهج المضللين في كل عصر ، يرتكبون الجرائم ثم يلقون بها على المسلمين من العثمانيين والعرب وغيرهم ، وهم بريئون منها كبراءة الذئب من دم يوسف عليه السلام .

إن من واجبنا العلمي والحضاري أن نعيد الأمور إلى نصابها ، ونسند الفضل لأهله ، وفي إطار هذا الواجب علينا أن نجدد دراسة التاريخ العثماني ؛ لنكتبه من جديد ، دون تفريط أو إفراط ، ودون غلو أو ظلم ، ولن يكون هذا إلا من خلال دراسة الوثائق التاريخية التي يعج بها أرشيف الدولة العثمانية ، ولعل من الجيد هذه الوثائق ما تزال محفوظة إلى اليوم في كثير من بلاد العالم ، وتأتي تركيا ومصر على رأس الدول التي لديها هذا الكنز ، ولكن معظم هذه الوثائق تعاني من الحبس في ظلمات المخازن ، ومن واجبنا نحن الباحثين أن نخرجها إلى النور ، ونعيد فهرستها ودراستها لإجلاء الحق ، وكشف الزيف الذي يغطي تاريخ هذه الحقبة المهمة من تاريخنا .

وفي هذا الإطار يمكننا القيام بالتعاون العلمي بين المؤسسات الأكاديمية ، فيمكن أن يكون دراسة الوثائق العثمانية موضوعا لرسائل الدراسات العليا في أقسام العلوم الاجتماعية ، على أن يكون لكل قسم ما يتعلق به ، وفي ذلك مراعاة للتخصص ، وسرعة في الإنجاز ،

وكذلك يمكن التنسيق مع الأوقاف ومنظمات المجتمع المدني ، لدعم مشروعات التعاون في هذا المجال ، وتقديم المنح الدراسية للباحثين في هذا المجال .

إن التاريخ يكرر نفسه ؛ فإذا لم نسرع في دراسته وفهمه ، وإذا لم نستخرج منه الدروس اللازمة لحياتنا اليوم ، فإننا سنكون – بلا شك – ممن لم يخلدهم هذا التاريخ ، وسننقرض كما انقرضت أمم من قبلنا ، إن وعي تاريخنا وحضارتنا ليست مسألة ترفيهية ، بل هي إما أن نكون أو لا نكون ؛ فعلينا اختيار مايليق بنا ، وما يضمن لنا البقاء .

والله الموفق والهادي للصواب .

**قائمة المصادر والمراجع**

[1] محمد حرب العثمانيون في التاريخ والحضارة القاهرة 1994 .

[2] أحمد زكريا الشلق ، العرب والدولة العثمانية من الخضوع إلى المواجهة ط. مصر العربية للنشر والتوزيع القاهرة 2002.

[3] خليل إنالجيك تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة محمد .م. الأرناؤوط . دار المدار الإسلامي ليبيا 2002.

[4] لامين بن إبراهيم شميل الوافي في المسألة الشرقية والحرب الأخيرة بين الروس والعثمانيين مطبعة الأهرام الأسكندرية مصر.1877.

[5] حسن الضيقة الدولة العثمانية الدولة والمجتمع والسلطة دار المنتخب العربي لبنان 1997.

[6] أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم دار الجيل بيروت ، دار الأفاق الجديدة . بيروت .

[7] علي محمد محمد الصلابي الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط دار التوزيع والنشر الإسلامية مصر 2001.

[8] أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني ، سنن أبي داود ، دار الكتاب العربي ـ بيروت

[9] وهبة بن مصطفى الزحيلي التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، دار الفكر المعاصر – دمشق الطبعة الثانية ، 1418 هـ

[10] أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس ، البحر المديد دار الكتب العلمية ـ بيروت الطبعة الثانية 2002 م - 1423 هـ.

[11] محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير ـ الطبعة التونسية دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - 1997 م

[12] القرطبي أبو عبد الله تفسير القرطبي( الجامع لأحكام القرآن )، تحقيق أحمد البردوني القاهرة 1372هـ.:

[13] عماد الدين بن محمد الطبري ، المعروف بالكيا الهراسي (المتوفى : 504هـ) أحكام القرآن للكيا الهراسى.

[14] محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي 1393 هـ دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان1415 هـ- 1995 م أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن.

[15] جورجي زيدان مصر العثمانية ط. مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة 2012

[16] محمد فريد تاريخ الدولة العثمانية ط. محمد أفندي مصطفى ، مصر 1893 .

[17] أحمد فؤاد زكي ط. الزهراء للإعلام العربي مصر 1995.

[18] إسماعيل ياغي ، العالم العربي في التاريخ الحديث ط.دار المريخ الرياض 1995.